﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكفْرُ والاستكبارُ حجابٌ عنِ المنطق الصّريح، والعقلِ الصّحيح

لمّا افتتح الآيتين السّابقتين ببيانِ مقالةِ المَلَأ على الرّسول المُبلِّغ، وكان هذا القولُ قولَ سوءٍ وجحود، وعِنادٍ وصدود؛ أخبر – هنا – عن ذيول تلك المقالة، واستطرادات المَلَأ فيها، وإمعانِهم في استلاب عقولِ أقوامهم وأتباعهم، بالصّدّ عن طاعة الرّسول بالتّنظير المُبطِل، والرّأي الأُحاديّ المُستَبِدّ، في قولهم: "إنّكم إذا آمنتُم لبشرٍ مثلِكم، وصدّقتُم بما جاءكم به، وعبدتم الإلهَ الّذي يدعوكم لعبادته، فإنّكم تكونون منَ الخاسرين؛ لأنّكم لن تنتفعوا بطاعته"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ، فمِنْ ذلكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانًا، ومصدَرُه: الخَسارَةُ والخُسْرُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[2]، وخَسَرَ إذا نَقَصَ ميزانًا أو غَيْرَهُ، وخَسِرَ إذا هَلَكَ[3]، والتَّخْسيرُ: الإهلاك[4]، وقيل: الإبْعادُ مِن الخَير[5]، والمُرادُ بالخسارة هنا: الغَبْنُ، أي: لَمَغْبونونَ بتَرْكِكُم آلهتَكم واتّباعِكم إيّاه من غير فضيلةٍ لهُ عليكم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من أسباب الخسارة العظيمة طاعةُ البشرِ العاجزَ الضَّعيفَ

لقد أكَّدوا من فرْطِ حسدِهم بقولهم: (ونُقسم لئن أطعتُم بشرًا مماثلًا لكم في بشريَّتِكُم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه،

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2587.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/ 374.

إنَّكم إذَن لَمَغْبونونَ)، وهذا من العجب، فإنَّ الخسارة والنَّدامة حقيقةً لمن لم يتابِعْه، ولم يَنْقَدْ له، والجهل والسَّفَهُ العظيم لمن تكبَّر عن الانقياد لبشرٍ خَّصه اللّه بوحيه، وفَضَّلَه برسالته، وابتُلي بعبادة الشَّجر والحَجَر[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ موقعِ جملة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾:

الاستطالة في الاحتجاج على غير طائل، من شؤون المُبْطِلين

جملة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ معطوفة على جملة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2]، فهي داخلة في حيّز القول، وهي منَ المَلاحِق على مبدأ القول وأصله في جملة: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

فائدة اللّام في ﴿وَلَئِنْ﴾:

اللّام تحتمل القَسَمَ أو التّوكيدَ فقط، والعِبرةُ بقصد المتكلّم

اللّام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ هي الموطّئة للقَسَم قبل الشّرط؛ للتّنبيه على القسم المحذوف[3]، وفائدتُها: نيابةُ القَسَم المحذوف في توكيد مضمون الجملة؛ للمبالغة في تحقيق الشّرط المَذكور في جوابه؛ ليَنزِلَ كلامُهم منزلةَ الوعدِ اليقينيّ المشروطِ بحصول شرطِه، والتّقدير: (واللّهِ إنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ ...)، ويصحّ إجراءُ التّركيبِ على عدم اعتبار قسَمٍ مُقدَّر، وأنّ اللّام الموطّئة هي لام الابتداء؛ لتأكيد مضمون الجملة، كتوكيد القَسَم[4].

دلالةُ الماضي ﴿أَطَعْتُم﴾ في سياق الشّرط:

احتمالُ الطّاعةِ للبشر المُماثِل، لا يتأتّى مع صِدق الوحي النّازل

الفعل الماضي ﴿أَطَعْتُم﴾ في جملة الشّرط، معناه الاستقبال، أي: إن تُطيعوه في المستقبل، أو تستمرّوا على طاعته؛ تخسروا، وأسلوبُ الشّرط مفادُه بإيجاز: أنّكم إنِ امتثلتُم آدميًّا مثلَكم في الخَلْق

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 40، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 121، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.
(2) صافي، الجدول: 18/ 177.
(3) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 180.
(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 170، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 186.

والحال، وعملتُم بأوامره، إنَّكُمْ إن أطعتموه لَخاسِرونَ، أي: مغلوبون في عقولكم، ومغبونون في مآلكم[1].

دلالةُ إدماجِ أسلوبِ القَسَم مع الشّرط:

مقامُ الاحتجاج يقتضي التّأكيدَ والقَسَم؛ للإقناع في الحِجاج

اجتمع في جملة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا﴾ القَسَم المُقَدّر معَ الشّرط؛ لتنزيل الكلامِ منزلةَ الوعدِ المَشروط، بحصول شَرطِه، ويدلُّ القَسَم المُقَدّر على أنّ الكلام في سياق الاحتجاج والاستدلال يُؤكَّد بأساليب التّحقيق والتّأكيد كالقَسَم، ويدلُّ أسلوبُ القَسَم على توقّع تكذيبِ المُخاطَب للمُتكلِّم، أو كونِ المُخاطَب مُستبعِدًا أو مُتردِّدًا في ثبوت الخبر الّذي يورِدُه المُتكلّم عليه، فالمَلَأ لمّا كانوا عارفين بأنّهم غيرُ جديرين بثِقَةِ أتباع الرّسولِ فيهم، وأنّ كلامَهم محلُّ نظرٍ وتردّدٍ، كان لا بدّ أن يصوغوا كلامَهم مؤكَّدًا بالقَسَم والشّرط ولامِ التّأكيد، في أوّل الجملة وآخرها – الموطِّئة والمُزحلَقة – في: ﴿وَلَئِنْ﴾، و﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾، وتوسيط الجوابِ بـ﴿إِذًا﴾؛ ليَدْفعوا بهذه المُؤكِّدات أيَّ تَرَدُّدٍ أو إنكارٍ يعتري ذِهنَ المُخاطَب إزاءَ كلامهم[2].

فائدة إقحام ﴿إِذًا﴾ بين الاسم والخبر:

توالي المُؤكّدات يكون أحيانًا أمارةً على عدم تماسُكِ المضمون

﴿إِذًا﴾ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ اسمُ شرطٍ غيرُ جازم، مُضافٌ إلى جملة مُقدّرة، والتّنوين فيه عِوضٌ عن الجملة المحذوفة، والتّقدير: (إنّكم إذا أطعتموه لخاسرون)[3]، وفائدةُ إقحامِ ﴿إِذًا﴾ بينَ اسم إنّ وخبرِها؛ لتأكيد مضمون جملة الجواب، وتحقيقِ النّسبة بينَ المبتدأ والخبر، وجملةُ الجواب: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، هي للقَسَم المُقدّر، وقد سَدّ مَسَدّ جوابِ الشّرط[4].

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.
(3) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.

سِرّ تنكير لفظ ﴿بَشَرًا﴾:

التّلبيس على المخاطب بتنزيل الحُجّة الخاصّة منزلةَ القانون الكليّ العامّ

تنكيرُ لفظِ ﴿بَشَرًا﴾ في قولة المعاندين: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا﴾؛ للتّعميم الّذي يُراد به التّعيين؛ لأنّ مرادَهم اتّباعُ الرّسول، وفائدة التّعميم: أنْ ينطليَ احتجاجُهم على مُخاطَبيهم؛ لأنّه إذا جاء الكلامُ على صورة العموم مع ما في نفْس المُتكلّم من إرادة الخصوص؛ كان الكلامُ خارجًا مخرجَ القانونِ العامّ والسُّنَّةِ الثّابتة، فيدفع عنهم تُهمةَ الانحيازِ المُضادّ المُتعسّف على غير بيّنة، فيُساق الكلامُ مساقَ الكلّيّات العامّة لأجل ذلك.

دلالةُ جملةِ الجواب على المُغالطة العقليّة:

أهـلُ العـقـلِ وتحريرِ المنطق الأنـور، نـادِرون في النّاس، مثلُ الكبريت الأحمر

في قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، جوابُ القَسَم المُقدّر الّذي سَدّ مسدّ جوابِ الشّرط، وفيه مغالطةٌ عقليّة، ومفارقةٌ غيرُ منطقيّة؛ وهي أنّهم شرطوا تحقّق الخُسران والجَزم به باتّباع الرّسول، والاهتداءِ بالحَقّ، فوضَعوا الشّرطَ في غير موضعه، وعادوا بالعُدْوان والظّلم على أنفسهم وعلى أقوامهم، فضلّوا وأضَلّوا، وترتيبُ المُغالطة: الرّسولُ بَشَرٌ مثلُهم وطاعةُ البشرِ خُسرانٌ، إذًا طاعةُ الرّسولِ خُسران!

ولو اعتبرنا بناءَ التّركيب وحده، دونَ تعلُّقه بقضيّة الرّسول، وهي قضيّة: (إنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ تَخْسَروا) بتعليق الخُسران على طاعة البشر، فهذا وحْدَه تمويهٌ وتلبيسٌ، ومغالطةٌ أيضًا؛ لأنّ طاعة البشر بإطلاقٍ وتعميم، لا تستلزم الخُسران، فهذه المُقدّمة لا تُنتِج هذه النّتيجة؛ بل لا بدّ من تحديد نوعِ الطّاعة، فطاعةُ البشرِ في الباطل والغلط تُؤدّي للخُسران، وما عدا ذلك منَ الطّاعة ليس خُسرانًا، فمُجَرّدُ التّعميم في منطوق كلامهم تلبيسٌ وغَلَطٌ! وبحمل التّركيب على التّقييد والتّعيين، فكذِبٌ وتضليل؛ لأنّ طاعة الرّسولِ ليست في باطل؛ لأنّه لا يأمر بباطل، فثَبَت أنّ طاعتَه أبعدُ ما يكون عن ملاقاة الخُسران[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾:

الكافر المُجادِل عن كُفْرِه، متمحّضٌ في الضّلال والإضلال

التّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ للدّلالة على تمحّضهم في الخُسران، وإحاطتِه لهم، واستغلاقِه عليهم، فوَصْفُ الخُسران ملازمٌ لهم، مستمرٌّ معهم، محيطٌ بهم، وهذا من مبالغتهم في تخويف أقوامهم منِ اتّباع الرّسول والوحي، مع ما فيه من قلقهم، وعدم استقرارِهم؛ حرصًا على نفوذهم الّذي سيتلاشى بانتشار دعوةِ الحَقّ والخير، لدرجة أنّهم يُلْقون الكلامَ على عَواهِنِه بلا تماسُكٍ ولا نظر، فضلًا عنِ اشتماله على الزّيْف والمُغالطات.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخُسْرانُ والخَيْبَةُ:

الخُسْرانُ يتعلّق بالوسائل والمُقدّمات، والخَيْبة تتعلّق بالنّتائج والغايات

أصل (خسر) يدلّ على النّقص، ومنه الخُسْرُ والخُسْرانُ والخَسارة، ويُنسب إلى القيَم، كالمال وما في حُكمه، كالسِّلَع والمُقتنيات وسائرِ المُتَّجَرات، وإلى الإنسان، فيقال: خَسِر فلانٌ، وإلى الميزان، فيقال: خَسِر في الميزان، إذا أنقصَه وأخَلّ به، والخسارةُ تُقال في المادّيّات كالمال والجاه في الدّنيا ونحو ذلك، وتُقال في المعنويّات كالصّحّة والعقل والإيمان، والعافية والثّواب، وكلّ خُسران ذَكَره اللّهُ تعالى في القرآن، فهو على هذا المعنى الأخير، دونَ الخُسران المُتعلّق بالمُقتنيات الدّنيويّة، والتّجارات البشريّة[1].

وأصل (خاب، خيب) يدلّ على عدم فائدةٍ وحِرمانٍ وفَوات، ومنهُ الخَيْبةُ، وهي فوْتُ الطّلبِ وعدمُ الظّفرِ بالبُغيَة، فالخائبُ هو المَحروم ممّا طَلَب[2].

فالخُسرانُ والخَيْبة وإن كانا يتقاطعان في غايةٍ واحدة، وهي عدمُ الظّفرِ والفَوات، فالخاسِرُ هو ناقِصُ الصّفقة، وكلّ ما نَقَصَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خيب).

منك، فقد فاتك، ولم تظفر به، وحُرِمتَ منه، والخائِبُ: هو المحروم الّذي فاتَه مُرادُه ولم يظفر به.

إلّا أنّ الفرق الدّقيق بينهما، يُؤخَذ من أصل دلالتِهما، فمعنى النّقص أصلٌ في الخسارة، ومعنى الفوات والحرمان أصلٌ في الخَيْبة، وهذا يجعل الخُسرانَ مُقدّمةً للخَيْبَة؛ لأنّه كلّما نقصَ منه شيء في أمر الدّين أو الدّنيا، أوْصَلَهُ ذلك إلى فوات مُراده، وامتناع مقصودِه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»